مجلة العلوم الإنسانية — عدد 11 (1999)، 195-210

حرائر البلاط العباسي في كتابات الجاحظ
- السيدة زبيدة أم جعفر نموذجا -

ملخص

يتناول هذا البحث قضية ذات أهمية كبرى تتمثل في مكانة المرأة العربية الاسلامية في مجتمعها، ولما كانت الحضارة العربية الاسلامية بلغت أوج ازدهارها في العصر العباسي. فإن زبيدة أم جعفر (زوج الرشيد وأم محمد الأمين)، كانت من أكثر نساء البلاط العباسي تأثيرا في حياة العصر بمجالاتها المختلفة، وقائدة الفريق العربي في صراعه مع الشعوبية بخاصة، والعناصر الفارسية بعامة، وهو مارشحها لأن تكون نموذجا لحرائر البلاط العباسي في هذا البحث.

د. يوسف غيوة
معهد الاداب واللغة العربية
جامعة منتوري، قسنطينة

Abstract

The research deals with an important issue related to the position of the Arabic Muslim woman in her society. When the Arabic Islamic civilization reaches its top and prosperity in Abasside era, Zoubeida Oum Djaafar (Rachid's wife and Mohammed El-Amin's mother) was the most influential woman in influencing the life of that period in its different fields.

She was also the leader of the Arabic Group in its struggle against anti-Arabs in general and Persians in particular. This enables her to be a model for the emancipation of women under the Abasside throne.

شكلت المرأة العربية الحرة أحد المحاور الرئيسية في النتاج الأدبي القديم عند العرب، وبخاصة في إبداعات الشعراء القدامى (جاهليون، و إسلاميون) الذين خصوها بافتتاحيات قصائدهم، و جاوز بها بعضهم ذلك المقدار فجعلها موضوعا رئيسيا لقصيدة من قصائده ؛ سواء أكان ذلك من خلال سرد تفاصيل مغامراته معها- كما هو في معلقة امرئ القيس - (1) أم من خلال التبسط في ذكر مفاتنها والتغني بجمالها، و ما تركه حبها من كلوم و خدود في فؤاد الشاعر كما هو في مطولة عنترة - (2).

وظلت المرأة في الشعر العربي على هذا الحال إلى أن استقل موضوع الغزل على أيدي الشعراء الغزلين في القرن الأول الهجري، من أمثال عمر بن أبي ربيعة و جميل بن معمر وكثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، المعروف بكثير عزة؛ وغيرهم ممن أخذ موضوع المرأة القسط الأكبر من دواوينهم. غير

أن اهتمامات هؤلاء الشعراء بالمرأة ظلت محصورة في دائـــرة ضيقـــة لا تتســـع لنموذج المرأة الحبيبة أو العشيقة، أو بمعنى اخر ظل الحديث عن المرأة في إبداعـــات أولئك الشعراء جبيس رؤية عاجزة عن كسر الدائرة العاطفية في حياة الإنسان.

أما فن النثر عند القدامى فإن حظ المرأة من اهتمامات أعلامه ظل قليلا على الرغم من تنوع الموضوعات النثرية من الخطابة إلى الحكم و الأمثال مـــرورا بالمحـــاورات والمناظرات والرسائل .

ولم يتعد حظ المرأة الحرة من هذا الفن عبارات قليلة وردت ضمن محاورات بيـــن شخصيات عربية قديمة معروفة، أو وصايا يزود بها الابـــاء والأمـــهات بناتـــهم فـــي مناسبات معينة كالزواج والسفر أو غير ذلك مما يحتاج معه إلـــى الـــتزود بالنصيحـــة وعصارات التجربة (3)

وكان من الطبيعي – و الحال هذه – أن تبقى تلك النصوص قاصرة عـــن ا الإحاطـــة بعالم المرأة بشكل كامل، على الرغم مما تضمنته من صور للجوانب الإنسانية – بمـــا في ذلك الجانب العاطفي. –

و انطلاقا مما تقدم نستطيع أن نزعم أن أول كاتب عربي تناول عالم المرأة بنظـــرة شمولية هو شيخ الكتاب العرب، الأديب والمفكر أبو عثمان عمرو بن بحر المعـــروف بالجاحظ . فهو الذي خص المرأة بفيض من الأفكار والاراء والملاحظات من شأنها – بعد الفحص، و التبويب والترتيب – أن تشكل دراسة متكاملة عن المرأة العربية فـــي جاهليتها و إسلامها، و تقدم صورا معبرة عن النماذج المختلفة التي يوفرها عالم المرأة في حضارته العربية الإسلامية.

والمادة التي بإمكان الباحث استخراجها من كتابات الجاحظ في هذا المجال غزيـــرة متنوعة، ذلك أنها تتناول الفئات الاجتماعية المختلفة عبر أزمنة وعصور تراكم خلالها ذلك الموروث الحضاري العظيم؛ منها فئة الحرائر قبل عصر الكاتب وبعده ثم أمهات الأولاد والجواري والقيان .

و يهمنا في بحثنا هذا أن نلقي الضوء على ما قدمه عن حرائر البلاط في عصره. و قد اخترنا نموذجا نعتقد أنه يمثل اصدق تمثيل لتلك الفئة من نساء المجتمع العباســـي اللائي لعبن أدوارا خطيرة في صنع القرار و سير الأحـــداث فـــي مجـــالات الحيـــاة المختلفة: الاجتماعي، السياسي، الثقافي. وهذا النموذج تمثله السيدة زبيـــدة أم جعفـــر! جعفر بن أبى جعفر المنصور، زوج هارون الرشيد و أم ابنه والخليفة من بعده محمـــد الأمين .

لكن قبل أن نعرض هذه الشخصية النسائية الفذة من السلالة الهاشمية نحاول ان نلقـــي الضوء عن بيئة المرأة العباسية بشكل عام . و نسجل بادئ ذي بدء ملاحظـــة تخـــص المساحة التي تحتلها حرائر عصر الجاحظ في كتاباته .

الحرائر العباسيات في كتابات الجاحظ:

إن المساحة التي احتلتها الحرائر العباسيات في كتابات الجاحظ من الضآلة. بحيث

لا تعد تمثل شيئا يذكر، إذا ما قورنت بما احتلته المرأة العربية القديمة – في الجاهلية والإسلام – و الجارية في عصره. فنصيب الحرة العباسية من كتابات أبي عثمان لا يتعدى بعض القصص التي وردت في كتابه " البخلاء" نقل من خلالها صورا لنماذج من نساء عصره الشهيرات أو بعض الإشارات المقتضبة إلى عدد من سيدات المجتمع العباسي داخل البلاط و خارجه، وردت عرضا في كتبه الأخرى. تقول الدكتورة وديعة طه النجم في هذا الصدد: " لابد من الإشارة إلى مسالة مهمة: و هي أن المرأة التي يصورها الجاحظ في مؤلفاته، و التي يتحدث عنها في المجتمع العباسي المعاصر له ليست هي المرأة العربية الحرة ، بل هي المرأة الجارية التي برزت في المجتمع و لعبت دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية و الأدب و الفن و الغناء و الملذات.. صحيح أن الجاحظ يذكر نساء لعبن دورهن في الحياة السياسية كليلى الناعطية التي كانت إحدى شخصيات الشيعة الغالية، لكن موضوع هذه المرأة لا يمكن أن يقال عنه إنه كان مدار البحث عند الجاحظ ولم يدر حوله أيا من مؤلفاته و لم تكن الإشارة إليها في مؤلفاته إلا عارضة (4).

فهذا النص من دراسة الدكتورة وديعة النجم يحمل في طياته أكثر من دلالة لعل أهمها هذا التراجع الذي سجلته المرأة الحرة أمام الجارية ليس على مستوى الأسرة فحسب حيث أصبح الرجال كما لاحظ الدكتور شوقي ضيف " يفضلونهن بعامة على الحرائر " (5)؛ بل في حياة المجتمع بجميع مجالاتها. غير أن ذلك لم يؤد بالجاحظ إلى إهمال حرائر عصره ، كما يفهم من قول الباحثة السابقة. فنظرة سريعة في كتاب " البخلاء " تعطينا صورة حقيقية عما كان يكنه أبو عثمان لهذه الفئة من نساء مجتمعه، و بخاصة نساء المعتزلة كما سنوضحه في مقام اخر.

أما الإشارة إلى بعض حرائر عصره عرضا فهي الأداة المفضلة لديه في معالجة موضوعات كثيرة، و بخاصة عندما يلح على تلك الأداة ويكثر منها. فهو مثلا لم يخص المرأة العربية القديمة – قبل العصر العباسي – بدراسة خاصة على الرغم من ايات الإكبار و الاحترام التي تبرز من المادة الغزيرة التي خصها بها في كتاباته، و التي وردت في شكل إشارات وملاحظات وأخبار مقتضبة.

دواعي الاهتمام بالجواري في كتابات الجاحظ:

إذا كان أبو عثمان أفرد للقيان رسالة من رسائله العديدة فإن ذلك يعود – حسب اعتقادنا إلى ما بلغته هذه الفئة من نساء عصره من مكانة مرموقة و ما لعبته من أدوار في الحياة الأدبية والفنية وفي صقل الذوق العام. يقول الأستاذ أحمد أمين: " نشر هؤلاء الجواري نوعا من الثقافة كان لابد منه في مثل مدنية العباسيين وهو لابد منه في كل مدنية. وأعني بذلك الفنون الجميلة وما يتبعها من رقي في الذوق الفني " (6).

والجارية القينة لم تكن وحدها المسيطرة على حياه المجتمع العباسي في مجال ما (مجال الفنون و الذوق العام) بل نجد الجارية غير القينة تشاركها هذه السيطرة وتحتل بدورها مكانة مرموقة في مجتمعها. و لعل فئة أمهات الأولاد خير نموذج يمثل

سيطرة الجواري على حياة الناس في المجتمع العباسي انطلاقا من البلاط وصولا إلى أدنى المستويات الاجتماعية بالحواري و الأزقة و الأسواق، وبخاصة إذا أخذنا في تقديرنا عنصرا هاما أتاح لهذا النوع من الجواري نفوذا كبيرا في حياة الدولة والناس على السواء، ونقصد به إنجاب أمهات الأولاد لأغلب خلفاء بني العباس ، كما تقرر ذلك الباحثة الدكتورة رمزية الأطرقجي ، حيث تقول : " وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد " (7).

كان من الطبيعي والحال هذه أن تتبوأ الجارية التي أصبحت أم ولد الخليفة في كل الأحوال، و أم ولي عهده أو أولياء عهده في أغلبها، وأم الخليفة في بعضها، كان من الطبيعي إذن أن تتبوأ هذه الجارية مكانة الصدارة في البلاط وخارجه حيث كانت حبيبة الجميع من الخليفة إلى من هم دونه ، و كانت مدبرة الأمور في البلاط. يقول الجاحظ في هذا المعنى: " ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين " (8).

و قد برزت في هذا المجال الخيزران ، حيث كانت أول أم ولد تصل إلى هذه المكانة في بلاط زوجها محمد المهدي ثم في دولة ابنيها: موسى الهادي وهارون الرشيد . فلم تمض فترة طويلة على اعتلاء زوجها عرش الخلافة العباسية حتى أصبح لها سلطان على البلاط بحجابه و العاملين فيه وندماء صاحبه؛ تقرب منهم من تشاء وتبعد من تشاء (9) و أصبحت تجلس للناس و تفد عليها الوفود و ينتظر أصحاب المظالم على بابها، وهو ما توضحه هذه الصورة التي رسمها أبو عثمان لدورها في تصريف شؤون الدولة، قال: " ووقف الهيثم بن مطهر الفأفاء على ظهر دابته على باب الخيزران ... فلما طال وقوفه بعث إليه عمر الكلواذي فقال له: انزل عن ظهر دابتك ..." (10) ولم تكتف المرأة الجارية بهذا القدر من النفوذ إذ تجاوزته إلى مجالات أخرى كثر نشاطها فيها ، وأمسكت بزمام الأمور في مجال الفن و الأدب فكانت الأديبة والشاعرة ، و كانت الفنانة (11). يقول الدكتور شوقي ضيف عن دورها في المجال الأدبي: " وكانت كثيرات منهن يثقفن بفنون الاداب ... بل كان منهن من يتقن نظم الشعر "(12).

وإذا كانت هذه حال المرأة الجارية في المجتمع العباسي فماذا عن المرأة العربية الحرة ، فهل غابت عن أحداث العصر و حياة المجتمع ، و هل استسلمت لهذا الواقع الذي لم يعد لها دور فعال في صنعه ؟.

الصراع بين الحرائر والجواري:

لم يكن الأمر بسيطا بهذا الشكل، فالصراع بين الحرائر والجواري بدأ قبل العصر العباسي بزمن غير قليل، وتحديدا منذ وفود أسيرات المجاهدين الفاتحين على حواضر الدولة الإسلامية، وبخاصة شريفات فارس و بيزنطة و مصر وأفريقية وبنات ملوك أممها و شعوبها، اللائي، نفذن في زمن قصير إلى قلوب سادة المجتمع العربي و أشرافهم و لم يمض القرن الأول للهجرة حتى نجد أحد خلفاء بني أمية و فتيانهم

الماجنين يرمي بمملكه و دولته و بكل ماله قيمة و وزن في حياته وراءه، ويتفرغ للتمتع بإحدى جواريه ! فقد تلف عقل يزيد بن عبد الملك، وضاع شده من كلفه بحبابة، فأهمل الرعية و تخلى عن واجباته كحاكم للمسلمين، و لم يجد عتاب أخيه مسلمة و نصحه له شيئا (13).

ولما انتقلت الدولة إلى الأسرة العباسية ظهرت عوامل جديدة من شأنها أن تغلب كفة الجواري و بخاصة الفارسيات منهن، و تدفع بالحرائر إلى مواقع خلفية لم تمكنهن من المقاومة والمنافسة. غير أن قوة الشخصية لدى بعض حرائر تلك الفترة و صلابة إرادتهن سمحت لبعضهن بالحفاظ على مكانة الصدارة في الأسرة و المجتمع تقودهن في ذلك بعض حرائر البلاط اللائي بقين سيدات قصورهن يراقبن الأمور عن كثب و يسعين إلى دفع خطر الجواري بكل ما اتيح لهن من قوة ونفوذ داخل القصر وخارجه . و قد تسعى بعض منهن إلى التحصن بوثائق تضمن لهن دفع خطر الجواري و قد تتعداه إلى منع كل ما يكدر صفو العيش ويسمم جو الأسرة لتضمن بذلك التمتع بالاستقرار الأسري من جهة والفوز بولاية العهد لولدها ، ومن ثمة استمرار الخلافة في نسلها من جهة أخرى. كما نجده في هذه الصورة المعبرة التي نقلها أبو عثمان عن إحدى سيدات البلاط العباسي ذات شخصية قوية و إرادة صلبة ، من اللائي لا يثنيهن شيء عن الوصول إلى مقاصدهن و تحقيق أهدافهن؛ يقول الجاحظ في هذا المعنى: " قال علي بن محمد بن سليمان: أبي يقول: كان المنصور شرط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها و لا يتسرى ، وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته ، وأشهدت عليه بذلك، فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز و العراق ، و جهد أن يفتيه واحد منهم في التزويج، و ابتياع السراري فكانت أم موسى إذا علمت مكانه بادرته، و أرسلت إليه بمال فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد." (14).

انظر إلى إرادة هذه السيدة الشريفة، و إلى عزيمتها الفولاذية، فهي تحرص الحرص كله على صيانة أسرتها، و تسعى السعي كله للحفاظ على زوجها لها ولأبنائها، لا تقبل ضرة تكدر صفو عيشها و لا ترضى بسرية تزعجها وتلهي زوجها عنها. إنه موقف من تعدد الزوجات فريد ، سباق إلى التحرر و الشعور بالذات، استطاعت هذه السيدة الشريفة أن تضمن من خلاله التمتع بحياتها الزوجية كاملة. إن هذا الموقف الذي نال إعجاب أبي عثمان بما فيه من قوة الشخصية وصلابة الإرادة يعطينا صورة على عزم الحرة الزوج من أجل درء الخطر من أي فئة كانت وما يزيد من الإعجاب بموقف هذه الحرة أنه حدث مع رجل صلب جبار مثل المنصور و لم يكن ذلك - من غير شك - بالأمر الهين .

إن خطر الجواري دفع بهذه المرأة العربية الشريفة إلى السعي الفعال و اللجوء إلى العهود والمواثيق من أجل استقرار الأسرة و دفع خطر السريات والضرات على السواء .

وتمضي الأيام بالمجتمع العباسي ويتطور الصراع سريعا، و شيئا فشيئا تبدأ كفة

الجواري في الرجحان بقصور الخلفاء والسراة، و لم يمض زمن طويل علـــى عـــهد المنصور وأم موسى الحمرية زوجه حتى تسيطر الجارية أم الولد على حيـــاة البـــلاط أولا ثم على حياة المجتمع بعامة .

وفي خضم ذلك الصراع وفي ظل هذه السيطرة كانت نجوم شخصيات نسائية من حرائر المجتمع العباسي تلمع في سماء ذلك العصر، و يسارع أبو عثمان إلى تســـجيل صور لهن من خلال كتاباته الخالدة كما رأيناه يفعل مع النموذج السابق .

والسيدة الحرة التي نالت أكبر الإعجاب منه من بين سيدات البلاط العباسي تبقـــى من دون شك زبيدة أم جعفر التي لم تكتف بخوض غمار ذلك الصراع العنيـــف بيـــن حرائر العصر وجواريه بل تجاوزت ذلك إلى قيادة فريق الحرائر في ذلك الصراع، ثم إلى افتكاك زعامة الفريق العربي في حربه الضروس ضد فريق الأعـــاجم الملتـــف و المتكتل حول إديولوجية الشعوبية بقيادة أسر أعجمية ذات إمكانات عظيمة والمتمتعـــة بنفوذ واسع مثل أسرة البرامكة وأسرة بني سهل و أسرة آل طاهر (15).

واختيار أبي عثمان أم جعفر كنموذج للمرأة العربيـــة الشريفـــة، مـــن الطبقـــة الأرستقراطية، التي تشارك في حياة الدولة بإسهاماتها في توجيه سياستها وصنع القرار فيها ، لم يأت صدفة و لم يكن صورة نشازا في عالم الدراسة الأدبية والحضارية. فقد سجل كثير من القدامى والمحدثين ما قامت به هذه السيدة الهاشمية من جهود من أجل تنمية مجتمعها وتطويره وما أسهمت به من أنشطة في مجالات الحياة جميعا.

1 - دور السيدة أم جعفر في الحياة الاجتماعية:

نسجل لها في الميدان الاجتماعي كثيرا من الإضافات والإبداعات نقلها الينا العديد من العلماء والباحثين، فالمسعودي يذكر في مروجه أنها لعبت دورا كبيرا علـــى مســـرح الحياة الاجتماعية بالأساليب التي أحدثتها واتبعها فيها الناس (16).

وتقول الباحثة قدرية حسين عن دور أم جعفر في الحياة الاجتماعية وأثرهـــا فـــي عصرها: " أما أثرها في عصرها فظاهر جلي ، فقد كـــانت قطـــب رحـــى الظـــرف والمبتدعة لأنواع كثيرة من ضروب الزينة حتى لقد يمكن وضعها في صفوف كبـــار أهل الفن العاملين على إحيائه وإنمائه في ذلك العصر " (17).

وتفصل الباحثة رمزية الأطرقجي القول أكثر على ضروب الزينة التي أحدثتـــها أم جعفر ونافستها بعض أميرات البلاط العباسي وشهيرات المجتمع، فتقول: " . . . كمـــا اهتمت السيدة زبيدة بأناقتها حتى كان ثوبها من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على *خمسين ألف دينار، كما كانت ترصع خفها بالجواهر وكانت تنتعل حـــذاء مزينـــا بالأحجـــار الكريمة، وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوص والصنـــدل، وكلاهمـــا مـــن الذهب والفضة ملبسة بالوشي والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر و الأزرق وتشبه النساء بسائر أفعالهن بأم جعفر. " (18).

وعن تنافس أميرات البلاط العباسي في هذا المجال تقول الباحثة نفسها: " وتنافست علية بنت المهدي والسيدة زبيدة زوجة الرشيد حيل تطوير الأزياء النسائية، فـــابتكرت

زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر " (19).

أما عن دورها الحضاري في عملية البناء والتعمير التي شهدها مجتمعـــــها وعـــن تشجيع العلم والأدب والفن فإن الباحثين الذين اهتموا بهذا الجانب يحدثوننا عن أنشطة كانت إضافة حقيقية إلى صرح الحضارة العباسية. تقول الباحثة قدرية حسين: " أنشأت كثيرا من المدارس والمستشفيات وأمرت بتأسيس الملاجئ وحفر الآبار والعيون فكنت ترى أثرها في كل مرافق البر التي رفعت من صيتها في الآفاق " (19).

أما الدكتور مصطفى جواد فإنه يسجل لها أعمالها الجليلة في طريق حجـــها رفقـــة زوجها الرشيد ، حيث يقول: " وقد أثرت زبيدة في مكة المكرمة آثارا جميلـــة ومـــآثر خالدة ، فإنها أجرت الماء إلى مكة عشرة أميال ، بحفر الجبال ونحت الصخور، حتى وصل الماء إلى الحرم وأسقى أهل مكة بعد أن كانت الراوية وهي كالقربة تباع عندهم بدينـــار ... ولها آثار جليلة عملتها ،بي المدينة " (20).

وأبوعثمان الذي لم يكن يفوته شيء ذو بال من حياة مجتمعه والذي كــــان عدســـة دائمة التفتح تلتقط كل صغيرة وكبيرة من شأنها أن تضيف إلى مجال مـــــن مجـــالات الحياة في المجتمع، لم يهمل دور هذه السيدة الهاشمية الاجتماعي والحضاري، وكان ما لفت نظره أهم حيث أعطانا مدلولا عن اهتمامات هذه المـــرأة فـــي مجـــالات الزينـــة والترف والظرف، وفي الوقت نفسه ينطوي على تجربة علميـــــة كـــأهم مـــا تكـــون التجارب في عالم البحث عن كل جديد من شأنه أن يسهم في تطوير الحياة الإنســـانية.
وفي هذا المعنى يحدثنا أبوعثمان عن مسعى للسيدة زبيدة قادها إلى تربية أنـــواع مـــن الأسماك في حوض خاص جعلته للزينة والمتعة، وكان له نتائج فـــي عـــالم المقاومـــة لظروف بيئية غريبة من جهة، وفي قضية التلاقح والتوالد بين الأنواع المختلفـــة مـــن فصيلة حيوانية واحدة. جاء في حديثه " وزعموا أن أم جعفر بنت جعفر بن المنصـــور حصرت في حوض لها ضخم أو بركة كبيرة عددا كثيرا من الزجر والبني، وأنها لــــم تجمع بهما غيرهما، فمات أكثره، وبقيت بقية كانت الصميم في القوة وفي احتمال تغير المكان فلم تحمل البيض حينا تثم إنها حملت بالشبابيط" (22)

وإذا كان أبوعثمان استوقفته التجربة من الناحية العلمية فتناولها ليثبت حقيقة تتعلق بنتاج تلاقح نوعين مختلفين من الأسماك وكيف أنه أعطى نوعا ثالثا فإن السيدة زبيـــدة لم يكن في ذهنها – وهي مقبلة على وضع السمك في حوضها – مثل هذه الأمور التي لا يشتغل بها إلا العلماء ذوي الخبرة في ميدان التجارب العلمية في مجـــــال الأحيـــاء والتلقيح وغيره، وأكبر ظننا أن أم جعفر إنما فعلت ذلك طلبا للترف والمتعة .

غير أن شكنا في صنع هذه الملكة الهاشمية طلبا للتجارب العلمية، لا ينفـــي عنـــها الذكاء الحاد وبعد النظر واعتمادها على الممارسة من أجل الوصول إلى غرضـــــها أو تطوير أمر من الأمور التي تهمها . نزعم هذا لأن ما نقله أبوعثمان عن سيرتها فـــــي هذا المجال يجعلنا نقف على أنشطتها المختلفة وممارساتها طلبا للتطور والتقـــدم فـــي شتى مجالات الحياة . يحدثنا أبوعثمان عن صنيعها في ميدان الملاحة وقيـــادة الســـفن فيقول :" وقد علمتم أن أول شأن الجمازات أن أم جعفر أمرت الرحالين أن يزيدوا فـــي

سير النجيبة التي كانت عليها، وخافت فوت الرشيد فلما حركت مشت ضروبـــا مـــن المشي، وصنوفا من السير فجمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأة تحسن الاختيار وتفهم الأمور فوجدت لذلك الجمز راحة ومع الراحة لذة ، فأمرتهم أن يسيروا بها فـــي تلـــك المسيرة فمازالوا يقربون ويبعدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كل ذلك تصوبـــهم وتخطئهم على قدر ما عرفت، حتى شدوا من معرفة ذلك ماشدوا، ثـــم إنـــها فرغتـــهم لإتمام ذلك حتى استوى ".(23)

فالجاحظ من خلال هذا الخبر يحرص على رسم صورة يبرز من خلالـــها مـــدى تفوق هذه المرأة في مجالات المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة، يتضح ذلـــك من خلال إلحاحه على، الألفاظ المعبرة عن المعرفـــة المحصلـــة بواســـطة التجربـــة والممارسة أولا، ثم على سداد الرأي وحسن التدبير، وهي أمور لا تتحقـــق إلا لمـــن رزق عقلا راجحا، وذكاء حادا وشخصية قوية ذات مواهـــب قيادية. نلمـــس هـــذا في قوله: " تحسن الاختيار وتفهم الأمور"، وقوله: " في كل ذلك تصوبهم وتخطئهم علـــى قدر ما عرفت ". فهي لم تكن حسنة الاختيار تفهم الأمور فحسب، بل إن درايتها بأمور السفن وأحوال الملاحة وقواعدها، وشخصيتها القوية تجعلانها في موقف يســـمح لـــها بتصويب ما اختل وإصلاح ما فسد، حتى تصل إلى الأسلوب الأمثل في سير السفينة .

ورجاحة عقلها مع سداد رأيها أمر لاحظه كثير ممـــن اهتـــم بـــهذه الشخصـــية العـــباسيـــة، فالدكتورة واجـــدة الأطرقجي مثلا تقول عنها: " كانت ســـيدة جليلـــة ذات يد طولى في الحضارة والأدب وكانت مـــن ذوات العقـــل والـــرأي والفصاحـــة والبلاغـــــة " (24).

2 – دور السيدة أم جعفر في الحياة السياسية:

كثير من الباحثين في حضارة بني العباس وفي تاريخهم السياســـي والاجتمـــاعي يتفقون على، أن السيدة أم جعفر لعبت دورا سياسيا أكيدا في الأحداث الجســـام التـــي عاشها المجتمع العباسي في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري. نزعم هـــذا علـــى الرغم من احتمال قيامها بدور ما قبل هذا التاريخ لسببين على الأقل: الأول. أن زوجها وابن عمها – هارون الرشيد اعتلى، عرش الخلافة سنة 170 هـــ، ومـــن الطبيعـــي أن تلعب – منذ هذا التاريخ على أقل تقدير – دورا ولو محدودا في سير الأحداث السياسية، وذلك بسبب تواجد سيدة أخرى قوية بالبلاط العباسي هي أم الخليفة الخيزران، والتـــي اعتادت أن تباشر أمور السياسة في دولة زوجها المهدي وزمـــن خلافـــة ابنـــها الأول موسى ط الهادي – كما مر بنا من قبل – هذه واحدة. والثانية فإن الرشيد نفسه يعترف بتدخل والدته في أجل الأمور وأعظمها مثل تولية كبـــار الحكـــام فـــي الدولـــة. روى الطبري خبرا في هذا المعنى، جاء فيه "ودعا الفضل بن الربيع؛ فقال له. وحق المهدي – وكان لا يحلف بها إلا إذا اجتهد– إني الأهم لك من الليـــل بـــالشيء مـــن التوليـــة وغيرها، فتمنعني أمي فأطيع أمرها" (25).

وتسجل الدكتورة رمزية الأطرقجي الأمر نفسه مع إدخال أم جعفـــر طرفـــا فـــي

القضية، حيث تقول: " فقد كان الرشيد يميل كثيرا إلى تولية الفضل بن الربيع - وهو عربي - بعض أمور الدولة، وكانت السيدة زبيدة زوجة الرشيد تؤيده في ذلك، بينما كانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك " (26).

كما تسجل الباحثة نفسها ملاحظة على جانب كبير من الأهمية، وهي تراجع، دور أم جعفر ومنزلتها في البلاط العباسي في حياة الخيزران ، حيث أنها لم تصبح سيدة القصر إلا بعد وفاة حماتها (27) .

والثاني: أن هذه السيدة الهاشمية بحكم نسبها (حفيدة المنصور وزوج ولي العهد قبل سنة 170 هـ كان في مقدورها كأميرة هاشمية في البلاط، أن تتدخل في حياة الدولة، ولو من وراء ستار، أو بمعنى اخر ولو بطريق غير مباشر.

هذا من حيث الفترة التي أثرت أثناءها في حياة الدولة ؛ أما من حيث التأثير نفسه فهذا أمر مفروغ منه، إذ يكاد يحظى بإجماع الدارسين. فبالإضافة إلى الشهادات السابقة، نستطيع أن نستأنس في هذا الصدد بشهادات جمع من العلماء الباحثين. منهم الدكتور مصطفى جواد الذي يجعلها تلعب دورا في حادث خطير عاشته الدولة العباسية ونعني به الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون حيث يقول متحدثا عن الأول: " فافتتح خلافته بالغدر، وخلع أخاه المأمون من ولاية العهد، وكان لأمه زبيدة يد في هذه الحركة المشؤومة " (28).

كما ينسب إليها الباحث نفسه أيادي في نكبة البرامكة، يقول متحدثا عن مقتل جعفر بن يحي: " وكانت أحد من حرض الرشيد على إهلاكه " (29) .

وتمضي الباحثة قدرية حسين على النهج نفسه فتقول " وكانت زبيدة من أهم الأيدي العاملة في حياكة وتدبير تلك النكبة المفجعة " (30).

أما الدكتورة رمزية ا الأطرقجي فإنها تنقل عن المسعودي رأيه في عمل السيدة أم جعفر على تحريض الرشيد كي ينكب البرامكة وينكل بهم، لما أدركته من استفحال أمرهم وخطورة ذلك عليها وعلى ابنها وفريقها العربي في البلاط والدولة جميعا، فتقول الباحثة في هذا الصدد: " فقد أدركت استفحال أمر البرامكة وكانت من المحرضين على نكبتهم " (31).

وهذا الإجماع المسجل حول إسهامها في نكبة البرامكة لا يخرج عنه إلا ابن عبد ربه في العقد الفريد حيث ينقل إلينا خبرا عن سعي السيدة زبيدة لدى زوجها الرشيد من أجل الاستشفاع للبرامكة بإيعاز من الأمين الذي رق لاستعطاف أخيه في الرضاعة يحيى بن جعفر (32).

وأيا كانت صحة ما نقله ابن عبد ربه فإن هذه السيدة قد أسهمت - بشكل أو بآخر في صنع حدثين خطيرين غيرا كثيرا من مسار الحياة السياسية والحضارية في العصر العباسي، ومن موازين القوى في الدولة ، نذهب هذا المذهب لما نجده بين أيدينا من الدلائل على ط ذلك ، ولأنه يتفق وطبيعة الأمور في البلاط العباسي بعامة وفي حياة أم جعفر بخاصة.

غير أن ذلك لم يثر أبا عثمان ولم يدفعه إلى الخوض في ذلك الأمر بشكل موسع،

وكأنه حريص على أن يظهر بمظهر حيادي، ومن ثمة نجده يذكر – البرامكة – على الرغم من الخصومة المذهبية بينه وبينهم – بخير في مواطن عديدة، وبخاصة عندما يكون الأمر متعلقا بالبلاغة والبيان (33).

أما الفتنة بين الأخوين الخصمين فإن هواه المذهبي كان – من دون شك – مع المأمون الذي ، عمل على تقريبه وإدخاله البلاط مع كبار رجالات المعتزلة، وبخاصة منظرهم في البلاط ثمامة بن أشرس (34) من ثم كان لا يذكر محمد الأمين إلا ويقرن اسمه بكلمة " المخلوع" ، بل إن هذا اللقب هو الذي عرف به الأمين في كتابات أبي عثمان. ومع كل هذا لم يشأ أن يخوض – على غرار ما فعله في نكبة البرامكة – في الفتنة وأسبابها وأطرافها وملابساتها، وكأنه كان في موقف حرج بين انهزام الفريق العربي في الدولة بقيادة أم جعفر وابنها، ووزيره العربي الفضل بن الربيع. وبين انتصار شريكه في فكر الاعتزال ولكن بمعية كبار الأعاجم الذين يشكلون الفريق المعادي للعرب والذي عرف في الدراسات التاريخية والاجتماعية والأدبية باسم " الشعوبية " التي حاربها أبو عثمان بكل ما أوتي من قوة، وبكل ما أتاحه له قلمه (35)، وبخاصة بعد ما تعرض له من دسائس رجالاتها في ديوان الرسائل (36).

وإن كان أبو عثمان لم يشأ الخوض في الحدثين السابقين، وإن كان رفض إقامة جدل حول دور أم جعفر فيهما ، فإنه في المقابل قدم صورة عن نشاطها في البلاط والدولة والمجتمع من خلال إشارة عارضة وردت في كتابه البيان والتبيين، حيث قال:" كنحو ما كان يعرض لمحمد بن الحجاج، كاتب داود بن محمد، كاتب أم جعفر "(37).

فهي لم تتخذ كاتبا خاصا فحسب كما كانت تفعل سيدات البلاط، بل كان لكاتبها كتاب يختلفون ل في الحوائج ومساعدون يساعدونه في المهام التي تسندها إليه سيدته. وفي هذا إشارة ضمنية إلى دورها البارز في الدولة والمجتمع معا، الذي كان يستدعي منها الاستعانة . بمساعدين وموظفين يخففون عنها الأعباء، ويتصرفون في حوائجها المختلفة؛ وبخاصة أنها كانت تملك ثروة هائلة تضم ضيعات وإقطاعات تتطلب العناية والرعاية وهو أمر لا يتحقق إلا بجيوش من القيمين والموظفين. وهذه تعد شهادة على المكانة التي كانت تحتلها هذه الهاشمية الشريفة في حياة الدولة والمجتمع .

3 – السيدة أم جعفر ودورها في الحياة الأدبية:

لم تقتصر اهتمامات هذه السيدة الشريفة على المجالات الاجتماعية والسياسية، بل امتدت إلى مجال أنبل وأعظم هو ميدان الفن والأدب، فقد أثر عنها نشاط أدبي وافر كمتذوقة لفن الشعر أولا ثم كمبدعة له، عارفة بأسراره وقواعده ثانيا، وكمالكة لنواصي البلاغة والبيان في فن النثر ثالثا.

ومن الشواهد على نبوغها في المجال الأدبي هذه الصورة التي قدمها أبو عثمان عن براعتها في فن لم ينبغ فيه إلا جهابذة البلاغة والبيان من الخلفاء والوزراء وكبار

الكتاب، ونعني به فن التوقيعات ، الذي شهد بتفوقها فيه رؤوس الكتابة الفنية في العصر العباسي، يقول الجاحظ في هذا الصدد: " وخبرني جعفر بن سعيد، رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه، قال: ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى، فقال: قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا، وأجمع للمعاني " (38).

إن قول عمرو بن مسعدة – أحد أكبر الكتاب في العصر العباسي قاطبة – يحمل أكثر من دلالة. فهو صادر عات شخصية أدبية تحظى أحكامها وأراؤها باحترام المهتمين بمجال الأدب وتقديره، ومن ثم فهو بمثابة إجازة علمية تضاهي أعلى الشهادات التي تمنحها الهيئات العلمية في عصرنا. وكونه أعطاها التقدم والتفوق على شخصية عرفت بطول الباع في البلاغة، وبعد الصيت في عالم الأدب والبيان كجعفر بن يحيى، يجعل منها رأسا من رؤوس الحياة الأدبية في عصرها. فالرجل كان عظيما في أعين علماء عصره، ليس بسلطانه أيام الرشيد قبل مقتله ونكبة أسرته فحسب، وإنما بصفاته وخصاله البيانية، وتفوقه في ميدان البلاغة والفصاحة. نقل الجاحظ عن ثمامة بن أشرس أنه قال: " كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة"(39).

ثم إن عقد المفاضلة بينها وبين جعفر بن يحيى في فن التوقيعات بالذات، الذي تقدم فيه حتى الأقران، وتقدم على الأعلام ، لدليل على ط إمكاناتها وخبرتها في هذا المجال. فجعفر بن يحيى شهد له علماء البيان والبلاغة بالمكانة الرفيعة في هذا الفن، و الخبرة الواسعة فيه ، مما جعل توقيعاته محل التنافس بين البلغاء، ومرجعا يرجع إليه طلاب هذا الفن يتعلمون منه أساليبه وقواعده . نقل ابن خلدون صورة عن ذلك فقال: " قد كان جعفر بن يحيى صلا يوقع في القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس، البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار"(40).

وأخيرا فإن عمرو بن مسعدة نص على وجه التفوق، ونقطة الفصل التي جعلت أم جعفر أعظم في عينه وتوقيعاتها أجود، والتي تتمثل في الإيجاز. وهو أمر طلبه جعفر بن يحيى نفسه، بل تجاوز ذلك حتى أوصى بالالتزام به، فقد نقل صاحب كتاب الصناعتين له قولا في هذا المعنى، قال: " وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا " (41) فهو مدرك لأهمية الإيجاز عند البلغاء العرب وقيمته في تحديد مكانة الكاتب أو الخطيب، وهو في ذلك إنما يصدر عن مفهوم راسخ لدى علماء البلاغة والبيان، بعد إخراجه وتطويره وصقله على أيدي القدماء . فقد سأل معاوية بن أبي سفيان صحار العبدي (42) عن مفهوم البلاغة عند العرب فقال: " ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز" (43).

وينقل الجاحظ عن ابن الأعرابي أن المفضل الضبي سأل أعرابيا: " ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل" (44).

وكان بعض علماء الأمة وأخيارها يرى في الإسهاب أمرا قبيحا يستعيذ بالله منه.

فقد نقل أبو عثمان خبرا عن ابن الأعرابي في هذا المعنى، جاء فيه " قال ابن الأعرابي: قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات . قال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا! فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن . فقال: نعوذ بالله من الإسهاب " (45).

وتفوق السيدة أم جعفر في هذا الفن النثري الرفيع إنما هو تعبير عن طول باعها في فصاحة القول وبلاغة القلم .والنصوص القليلة التي وصلتنا أكبر الدلائل على ذلك . فقد نقل طا الطبري وصية أوصت بها قائد جيوش ابنها عند خروجه إلى قتال جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين تعد غاية في فصاحة القول واية في جمال الإبداع . قال الطبري في حديثه عن علي بن عيسى بن ماهان عند توجهه نحو خراسان لقتال جيوش المأمون: " لما أراد الشخوص إلى خراسان ركب إلى باب أم جعفر فودعها ، فقالت: يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى؛ وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه، وغاره على ما في يده؛ والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره ؛ فاعرف لعبد الله حق والده وأخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية ولا خادم ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا تراده " (46).

إن هذه الوصية تعد بحق من أبدع ما نقلته كتب التراث في هذا الفن، ليس لما فيها من جمال فني وفره إيجازها وتركيزها على المعاني المطلوبة وعذوبة ألفاظها وتنغيم موسيقاها فحسب؛ ولكن لما تنطوي عليه هذه الوصية من علو همة صاحبتها وكرم خلقها ورقة مشاعرها، فهي لا تريد لخصم ابنها أن يذل أو يهان، ولا ترضى لمكانته أن تنحط، فهو فوق قائد جيوش ابنها منزلة وشرفا؛ لأن له أبوة يجب أن تصان وأخوة يجب أن تحفظ، أليس هو ابن زوجها، ثم أليس هو أخو ابنها؟ إن الخلاف الذي بين ابنها وأخيه لا يبيح قطع رحم هذا الخصم القريب. فما هذا الخلاف إلا تنازع على الملك بين أخوين سليلي الأسرة الهاشمية الشريفة، وأيا كانت نتائجه، فإنه يجب أن يحفظ لكل طرف مقامه ولا يدنس نسبه، يستوي في الأمر- عندها - الغالب والمغلوب. من ثم تبقى أم جعفر في هذه الوصية هاشمية تسعى إلى حفظ كرامة هاشمي قريب إليها وصلة رحمه وصون عرضه لأن ذلك من كرامتها وعرضها، حتى ولو كان هذا الهاشمي أخ ابنها وخصمه ل في الوقت نفسه.

فهذه هي السيدة زبيدة الأديبة المبدعة عند القدامى، فكيف هي في أحكام المحدثين؟ إن مكانتها عند هؤلاء لا تقل عنها عند أولئك، فقد أجمعوا على تقدمها وتنوع إبداعاتها في المجال الأدبي، التي جمعت فيه بين المنظوم والمنثور. تقول عنها الباحثة الدكتورة واجدة الأطرقجي: " وكانت من ذوات العقل والرأي والفصاحة والبلاغة، لها شعر ورسائل ووصايا وتوقيعات تدل على ذلك " (47) وتقول الباحثة نفسها عن رسائلها : " وممن عرف بالرسائل البليغة السيدة زبيدة ... ولم يصلنا للأسف الشديد من رسائلها إلا القليل ... إلا أن القليل الذي بين أيدينا يوقفنا على قوة بيانها وفصاحة لسانها، وتمكنها

من القول " (48).

أما الباحثة الدكتورة رمزية الأطرقجي فإنها تسجل لها شهادة في هذا المعنى جاء فيها " وكانت زبيدة شاعرة مثقفة، وكانت رسائلها إلى زوجها تحفل بأبيات عديدة من الشعر " (49).

أما الدكتور مصطفى جواد فإنه يسجل لها شهادة أخرى في هذا الميدان وذلك حيث يقول: " وكان لزبيدة شعر جيد منه قولها في فقدان ابنها الأمين:

ما رأيت المنايا قصدن له * أصبن منه سواد القلب والراسا
فبت متكئا أرعى النجوم له * أخال سنة في الليل قرطاسا
رزئته حين باهيت الرجال به * وقد بنيت به للدهر أساسا
فليس من مات مردودا لنا أبدا * حتى يرد علينا قبله ناسا" (50).

هذه إذن شهادات من باحثين محدثين تجمع كلها على براعة هذه السيدة في النظم، وبلاغتها في القول وإجادتها في الكتابة مما يجعلها بحق إحدى الشخصيات الأدبية الجديرة بجهود العلماء والباحثين في ميدان الدراسة الأدبية.

ونبوغها هذا كان وليد ظروف بيئية وذاتية تضافرت جميعا لتصنع هذه الشخصية الفذة. فمن حيث النشأة والثقافة يسجل الدارسون الرعاية التي أحيطت بها كأميرة في البلاط العباسي . تقول الباحثة قدرية حسين في هذا الصدد: " وقد قام جدها بتربيتها فأحسن أدبها، وعلمها القراءة و الكتابة ورواها الشعر وحفظها الأخبار والسير ، فشبت كلفة بالشعر والهة بالأدب حتى كانت تزين حوائط غرفتها بالستائر الموشاة بالنظم البديع والأبيات الرقيقة"(51).

أما إجادتها فنون الأدب شعرا ونثرا وإبداعاتها فيها، فهو أمر قدمنا من الشهادات عليه ما نراه شافيا، وأما " كلفها بالشعر وولهها بالأدب " فإن له مظاهر أخرى؛ منها تشجيعها أ÷ل العلم والأدب والإغداق عليهم بما يناسب منزلتها في البلاط العباسي، ويتفق وميولها الأدبية والعلمية. من ذلك ما تسجله الدكتورة واجدة الأطرقجي من برها بالعلماء والأدباء، حيث تقول: " كانت معروفة بالخير والأفضال على أهل العلم والأدب " (52).

ومن النماذج على صنيعها مع شعراء عصرها ممن مدحوا زوجها أو ابنها ما نقله ابن عبد ربه في عقده، عن موقفها من شاعر البلاط العباسي الأكبر مروان بن أبي حفصة والذي سجله من خلال قوله المنقول عن العتبي:" قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبياتا ورفعها إلى زبيدة بنت جعفر يمدح ابنها محمدا، وفيها يقول:

لله درك ياعقيلة جعفر * ماذا ولدت من العلا والسؤدد
إن الخلافة قد تبن نورها * للناظرين على جبين محمد

فأمرت أن يملأ فمه درا " (53).

وفي المعنى نفسه أرسلت إلى أبي العتاهية ليقول شعرا على لسانها تبعث به إلى المأمون بعد مقتل ابنها الأمين ، ففعل. ولما نظر المأمون في الشعر أرسل إليها يسألها القدوم عليه، فلما صارت إليه بعد ذلك قال لها : من قائل الأبيات؟ قالت: أبو العتاهية؛

قال: وبكم أمرت له؟ فقالت : بعشرين أنف درهم؛ قال المأمون: وقد أمرنا له بمثل ذلك" (54).

كما نقل الحصري في زهر الاداب صورة عن فهمها وتذوقها للشعر، ومعرفتها بأسراره ونوايا أصحابه وطرائقهم؛ جاء فيها : " أنشد رجل زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور:

أزبيدة ابنة جعفر * طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك * ما تعطي الأكف من الرغاب

فوثب إليه الخدم يضربونه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيرا وأخطأ وهو أحب إلينا ممن أراد شرا فأصاب، سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك: فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل (55)

فهي – كما ترى – بصيرة بطرائق الشعراء ومذاهبهم في النظم، عليمة بمعانيهم وصورهم، فكان لذلك فهمها لقصد الشاعر دقيقا، ووقوفها على الخطأ في قوله سريعا ؛ فأمرت بإجازته على نيته في مدحها وعرفت خطأه في إحضار المعنى وبناء الصورة.

هكذا كانت هذه السيدة الهاشمية ، تشارك في ميادين الحياة جميعا وتلعب الأدوار التي تؤهلها إليها مكانتها أولا وثقافتها ثانيا؛ تنشط في الميادين التي تراها مناسبة لأسرتها ومجتمعها.

وإن لم يكثر أبو عثمان الجاحظ من ذكرها، وإن لم يتوسع في تقديم إسهاماتها في تطور المجتمع العباسي، وصنع الأحداث في عصرها، فإن ما قدمه من صور نشاطاتها المختلفة يعد دعوة للباحثين والعلماء من أجل دراسة سيرتها وإبراز مكانتها في البلاط العباسي بخاصة ومجتمعها بعامة.

والله نسأل أن يكون هذا الجهد لبنة تضاف إلى جهود الباحثين الذين اجتهدوا من أجل نفض الغبار عن شخصية السيدة أم جعفر بما يتفق وتاريخها الحافل بالأحداث الهامة.

الهوامش

1- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس ص ٩، تحقيق محمد ابراهيم أبو الفضل، دار المعارف، مصر، دت.
2- القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 317، ط مصر، دت
3- انظر في ذلك وصية الفرافصة لابنته نائلة عندما جهزها إلى عثمان بن عفان – ض – ابن قتيبة، عيون الأخبار 76/2 ط الهيئة العامة للكتاب، مصر 1973، وقارن بالجاحظ، الحيوان 138/5، تحقيق عبد السلام هارون، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ثانية 1966.
4- د/ وديعة طه النجم، الجاحظ والحاضرة العباسية ص ١١٩، ط مطبعة الإرشاد بغداد 1965.
5- د/شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول ص 57، ط دار المعارف دت.

6- أحمد أمين، ضحى الإسلام 92/1 ط مكتبة النهضة المصرية، مصر ط 9، 1977 .
7- د/ رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول ص 171، ط جامعة بغداد 1982، وقارن بابن عبد ربه، العقد الفريد 113/5-131، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1965.
8- أبو عثمان الجاحظ، كتاب القيان، رسائل الجاحظ 156/2، تحقيق عبد السلام هارون، ط مكتبة الخانجي، القاهرة دت.
9- صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ص 7، ط دار الحياة بيروت 1957.
10- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين 269/2، تحقيق عبد السلام هارون، ط مكتبة الخانجي، القاهرة 1975 دت.
11- انظر أحمد أمين، ضحى الإسلام 90/1-91.
12- د/شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول ص 59.
13- ابن عبد ربه، العقد الفريد 61/6.
14- أبو عثمان الجاحظ، المحاسن والأضداد ص 137، تحقيق فوزي عطوي، ط بيروت 1969.
15- د/ زاهية قدورة، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، ص 272 ط دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972.
16- المسعودي، مروج الذهب 244/4، ط المطبعة البهية القاهرة 1927.
17- قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي ص 220 ط دار الكتاب العربي بيروت د .
18- د/ رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد ... ص 251.
19- المرجع السابق ص 254.
20- قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي ص 203.
21- د/ مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي ص 47 ط دار الفكر للجميع ، بيروت دت
22- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان 149/1، تحقيق عبد السلام هارون، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ط 2، دت.
23- المصدر السابق 83/1.
24- د/ واجدة الأطرقجي، المرأة في الأدب العباسي ص 409، ط دار الرشيد ، بغداد 1981.
25- أحمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري 238/8، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط دار المعارف ط 3، دت.
26- د/ رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد ... ص 349.
27- المرجع السابق ص 50.
28- د/ مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي ص 48.
29- المرجع السابق ص 49.
30- قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي ص 204.
31- د/ رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد ... ص 35 . وقارن بمروج الذهب 272/3.
32- ابن عبد ربه، العقد الفريد 65/5.
33- انظر مثلا ما نقله عن ثمامة بن أشرس يصف بلاغة جعفر بن يحيى، البيان والتبيين 106/1.

34- أبو عثمان الجاحظ ، البيان والتبيين 374/3 . وقارن بشارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص 363 ، ترجمة د/ ابراهيم الكيلاني، ط ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985.
35- جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، ص 131، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت 1974.
36- شارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص 360، ترجمة د/ ابراهيم الكيلاني.
37- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين 106/1 ، تحقيق عبد السلام هارون.
38- المصدر السابق 106/1.
39- المصدر السابق 105/1.
40- ابن خلدون، المقدمة ص 247 ، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت دت.
41- أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر ص 137 ، ط القاهرة دت. وقارن بالبيان والتبيين 115/1.
42- هو صحار بن عياش أحد الخطباء المفوهين والعلماء بالأنساب والأخبار، له صحبة.
43- أبو عثمان الجاحظ ، البيان والتبيين 96/1.
44- المصدر السابق 97/1.
45- المصدر نفسه 97/1.
46- الطبري، تاريخ الطبري 405/8، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
47- د/ واجدة الأطرقجي، المرأة في الأدب العباسي ص 409.
48- المرجع السابق ص 294.
49- د/ رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد ... ص 350.
50- د/ مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي ص 50.
51- قدرية حسين، شهيرات النساء في العالم الإسلامي ص 199.
52- د/ واجدة الأطرقجي، المرأة في الأدب العباسي ص 409.
53 - ابن عبد ربه، العقد الفريد 313/1.
54 - المصدر السابق 261/3.
55- ابراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الاداب وثمر الألباب 349/1، تحقيق علي محمد البجاوي ط دار إحياء الكتب العربية، مصر ط 3، دت .